

حسن التخلّص في سورة النور

د. زكريا علي محمود الخضر

أستاذ مساعد بقسم أصول الدين

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية / جامعة اليرموك

قدم للنشر في ١٤٣٣/٢/٢٦هـ وقبل للنشر في ١٤٣٢/٧/٥هـ

ملخص البحث. يعد حسن التخلّص أحد الفنون البلاغية التي حفل بها نظم القرآن الكريم، وقد عمل الباحث على بيان العلاقة بين حسن التخلّص وعلم المناسبات، وبيان كونه أحد الأوجه البلاغية في إعجاز القرآن الكريم. وقد أظهر الباحث عناية المفسرين بحسن التخلّص في تفاسيرهم، وركز على أهميته في بيان الترابط بين الآيات والموضوعات القرآنية، كما عرض البحث لدراسة تطبيقية لحسن التخلّص في سورة النور متعددة الموضوعات والمقاصد، فكشف الباحث عن أنواع العلاقات في حسن التخلّص، وأثر ذلك في بيان أسرار البلاغة والإعجاز في هذه السورة الكريمة.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فإن جمال نظم القرآن الكريم متعدد الصور ، ومتنوع الأفانين مما يشهد لإعجازه الخالد وبلاغته التي لا تجاريها بلاغة على الإطلاق.

وإن من صور هذا الجمال في النظم حسن التخلص والانتقال من موضوع الى آخر ، ومن آية الى أخرى دون أن يشعر القارئ بفجوة في هذا الانتقال ؛ بل يشعر بما يدعوه للإمعان في روعة هذا الانتقال فيتذوق رونق البلاغة ، وتهش لروعة هذا التخلص نفسه ، فيستشعر الرغبة الملحة في متابعة القرآن أو الاستماع لآياته.

وفي هذا البحث رغبت في أن أعرض لهذا الموضوع تأصيلاً وتطبيقاً ؛ وأن أفصل في بيان العلاقة بين حسن التخلص وعلم المناسبات ، وأبين مدخل حسن التخلص في الإعجاز مستتجاً العلاقات والروابط في حسن التخلص بين الموضوعات القرآنية ، ثم أقدم الدراسة التطبيقية لحسن التخلص والانتقال في سورة النور التي حفلت بالموضوعات الأخلاقية والأحكام الشرعية والعقدية ؛ إذ هي تشكل منظومة قيم اجتماعية تناسب الفرد والمجتمع ، وقد تضمنت أحكاماً شرعية متنوعة تتعلق بأحكام القذف والزنا والزواج وغيض البصر ، وآداب الدخول على البيوت وأحكامها ، وقضايا تتعلق بالأسرة والمحارم ، كما احتوت أصولاً عقدية ودلائل القدرة الإلهية ، وجوانب الهداية الربانية للخلق ، وتعرضت لمواقف المنافقين وأصولهم ، ومواقف المؤمنين ووعد الله الصادق لهم وما إلى ذلك. فأثرت البحث في دقة القرآن وروعة انتقاله بين هذه الموضوعات المتنوعة وكيف ظهرت كأنها موضوع واحد متفق متسق في جميع جوانبه ،

وكيف أن الانتقال والتخلص في هذه الموضوعات لم يشعر القارئ بفجوة فيه أو تغير محل بالنظم، مبيناً أسرار البلاغة لهذا الانتقال في السورة.
وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون على النحو الآتي :
المقدمة.

المبحث الأول : تعريف حسن التخلص وبيان العلاقة بينه وبين علم المناسبات ، وفيه خمسة مطالب هي :
المطلب الأول : تعريف حسن التخلص عند البلغاء.
المطلب الثاني : تعريف حسن التخلص عند علماء علوم القرآن.
المطلب الثالث : بيان العلاقة بين حسن التخلص وعلم المناسبات.
المطلب الرابع : أهمية حسن التخلص وبيان كونه وجهاً من أوجه الإعجاز البياني.

المطلب الخامس : بيان اهتمام المفسرين بحسن التخلص في القرآن.
المبحث الثاني : الدراسة التطبيقية لحسن التخلص في سورة النور ، وفيه عشرة مطالب ، هي :

المطلب الأول : الانتقال من التأصيل إلى التفصيل.
المطلب الثاني : الانتقال من الإجمال إلى التفصيل.
المطلب الثالث : الانتقال من حكم إلى حكم آخر.
(حسن التخلص من حد الزنا إلى حد القذف).
المطلب الرابع : الانتقال من الحكم إلى النموذج
(حسن التخلص من حد القذف واللعان إلى حادثة الإفك).
المطلب الخامس : الانتقال من الحكم إلى الوصف.

(التخلص من حادثة الإفك إلى بيان صفة المنافقين).

المطلب السادس: الانتقال من الحكم إلى السبب.

المطلب السابع: الانتقال من الأحكام إلى وصفه لذاته سبحانه وضرب المثل.

المطلب الثامن: الانتقال من الحكم العقدي إلى الأثر العملي المترتب عليه.

المطلب التاسع: الانتقال من وصف المتقين إلى جزائهم.

المطلب العاشر: الانتقال من ذكر المتقين إلى ذكر الكافرين.

آمل أن أكون قد وفقت في هذا البحث سائلاً الله - تعالى - السداد في القول والعمل، إنه ولي التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول: تعريف حسن التخلص وبيان العلاقة بينه وبين علم المناسبات

المطلب الأول: تعريف حسن التخلص عند البلغاء

ورد التعبير بمصطلح حسن التخلص عند علماء البلاغة المتأخرين، ومقصودهم منه: الانتقال بخفة من فن إلى آخر من فنون الكلام، بحيث لا يشعر السامع بفجوة خلال هذا الانتقال، وهو من فنون البلاغة العربية، وقد جرى على استعماله الشعراء في العصر الجاهلي، لكنه لم يكن معروفاً بهذه التسمية.

وأول من استعمله ابن المعتز وسماه "حسن الخروج من معنى إلى معنى" ^(١) وعده من محاسن الكلام، ومن ذكره كذلك أبو هلال العسكري وسماه "الخروج من النسب إلى المدح وغيره" ^(٢)، وذكر له العديد من الشواهد الشعرية.

(١) ابن المعتز، البديع، ص ٦٠.

(٢) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص ٤٥٢.

وقد ذكره ابن رشيق وسماه "الخروج" و"التخلص"، وقال: "وأما الخروج: فهو عندهم شبيه بالاستطراد، وليس به؛ لأن الخروج إنما هو أن تخرج من نسيب إلى مدح أو غيره بلطف تحيل، ثم تتمادى فيما خرجت إليه"^(٣)، ثم قال: "ومن الناس من يسمي الخروج تخلصاً وتوسلاً"^(٤).

وقد عرفه عبد القادر البغدادي بأنه استطراد من معنى إلى آخر مع وجود الانسجام بين تلك المعاني، حيث قال: "هو أن يستطرد الشاعر المتمكن من معنى إلى معنى آخر، يتعلق بمدوحه بتخلص سهل يختلسه اختلاساً رشيقاً دقيق المعنى، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني؛ لشدة الممازجة والالتئام والانسجام بينهما، حتى كأنهما أفرغا في قالب واحد"^(٥).

ومراد البغدادي من الاستطراد: الانتقال، إما للتوضيح، أو لإزالة الإبهام، وما إلى ذلك مما يستدعيه المقام ويتطلبه حسن الكلام.

وقد غني به القزويني حيث يقول: (الانتقال مما شبب الكلام به من تشبيب أو غيره إلى المقصود، مع رعاية الملاءمة بينهما؛ لأن السامع يكون مترقباً للانتقال من التشبيب إلى المقصود كيف يكون، فإذا كان حسناً متلائم الطرفين حرك من نشاط السامع، وأعان على إصغائه إلى ما بعده، وإن كان بخلاف ذلك كان الأمر بالعكس)^(٦)

(ومن الاقتضاب ما يقرب من التخلص كقول القائل بعد حمد الله: أما بعد

(٣) ابن رشيق، العمدة، (٢٣٤/١).

(٤) المرجع السابق، (٢٣٦/١).

(٥) البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، (١/٣٢٩).

(٦) الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، (١/٣٩٣).

وكقوله تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّالِفِينَ لَشَرَّ مَنَاقِبٍ﴾** (سورة ص: ٥٥)؛ أي الأمر هذا، أو هذا كما ذكر، وقوله تعالى: **﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَنَاقِبٍ﴾** (سورة: ص) ونحوه قول الكاتب هذا^(٧).

وقال محمد الجرجاني: (أما التخلص: فهو الانتقال من التشبيب أو غيره إلى المقصود، فإن السامعين يترصدونه، فإن كان حسناً مناسب الطرفين حركهم النشاط على الإصغاء لكلامه، وإلا أحجمت أسماعهم)^(٨).

وفهم من هذا أن التخلص على نوعين: محمود؛ وهو الذي يلتئم فيه الكلام، وتدعو الحاجة إليه، ومذموم؛ وهو ما لم يحسن الانتقال فيه من جهة المعنى وموافقة الكلام.

و(هو فن مشهور ذائع في كلام البلغاء، وهو امتزاج ما يقدمه الكاتب أو الشاعر في البسط بأول ما استهل به كلامه - كالبيت الأول من القصيدة، والفقرة الأولى من المقالة - على أن يختلس ذلك اختلاصاً رقيقاً دقيق المعنى، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني، لشدة الممازجة والالتئام، كأنهما أفرغا في قالب واحد، أو يوطئ الكاتب فيه بفصل لفصل)^(٩).

المطلب الثاني: تعريف حسن التخلص عند علماء علوم القرآن

ورد استعمال هذا المصطلح البلاغي عند علماء علوم القرآن الكريم، ولا تكاد تجد فرقاً كبيراً بين ما عند هؤلاء وما عند علماء البلاغة في مفهومه، وغالباً ما يذكرونه تحت مبحث المناسبات.

(٧) المصدر الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة (١/ ٣٩٤).

(٨) الجرجاني، الإشارات والتنبيهات، ص ٣٢٢.

(٩) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن، (١٢/ ٣٧٥).

فتجد الزركشي تحت باب "معرفة المناسبات بين الآيات" يذهب إلى وجود هذا الفن في القرآن الكريم، ويرد على من ينكره، فتراه يفند قول الغامي^(١٠): "ليس في القرآن شيء منه لما فيه من تكلف"، ويقول:

(وليس كما قال، ومن أحسن أمثلته: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (النور: ٣٥)، فإن فيها خمس تخلصات؛ وذلك أنه جاء بصفة النور وتثيله ثم تخلص منه إلى ذكر الزجاجة وصفاتها، ثم رجع إلى ذكر النور والزيت يستمد منه، ثم التخلص منه إلى ذكر الشجرة، ثم تخلص من ذكرها إلى صفة الزيت، ثم تخلص من صفة الزيت إلى صفة النور ونضاعفه، ثم تخلص منه إلى نعم الله بالهدى على من يشاء"^(١١) ثم ذكر شواهد أخرى من القرآن الكريم.

ثم قال: "واعلم أنه حيث قصد التخلص فلا بد من التوطئة له، ومن بديعه قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ (يوسف: ٢) يشير إلى قصة يوسف عليه السلام _ فوطاً بهذه الجملة إلى ذكر القصة يشير إليها بهذه النكتة من باب الوحي والرمز، وكقوله سبحانه موطئاً للتخلص إلى ذكر مبتدأ خلق المسيح _ عليه السلام _ ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا﴾ (آل عمران: ٣٣)^(١٢).

وقد عرفه السيوطي أخذاً عمن سبقه ممن ذكرت آنفاً، فقال: (هو أن ينتقل مما ابتدئ به الكلام إلى المقصود، على وجه سهل يختلسه اختلاصاً دقيق المعنى، بحيث لا

(١٠) هو: أبو العلاء محمد بن غانم.

(١١) الزركشي، البرهان، (٤٣/١).

(١٢) المصدر نفسه، (٤٥/١).

يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع عليه الثاني ؛ لشدة الالتئام بينهما^(١٣).

المطلب الثالث: بيان العلاقة بين حسن التخلص وعلم المناسبات

علم المناسبات باب واسع عند العلماء ، وهو يبحث في العلاقة بين الآيات ، أما علاقة حسن التخلص بعلم المناسبات فهي علاقة الفرع بالأصل ، فحسن التخلص جزء من علم المناسبات.

قال البقاعي وهو يتحدث عن المناسبات : هو "علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه ، وهو سر البلاغة ، لأدائه الى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال ، وتتوقف الإجازة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها ، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها ، لذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة ، وكان من علم التفسير كنسبة علم البيان من النحو"^(١٤). وحسن التخلص من علم المناسبات كنسبة البديع إلى البيان ، لذلك كان هذا الفن وطيد الصلة بأصله وهي المناسبات.

وإذ كانت المناسبة تظهر ارتباط الآيات بعضها ببعض ، فإن التخلص هو ذلك الرابط ، وكل ذلك من بديع نظم القرآن الكريم ، وفيه يقول سيد قطب _ وهو يصور تعجب المغيرة عندما سمع آيات من الكتاب العزيز : (إن السحر الذي عناه الوليد بن المغيرة كان كامناً في مظهر آخر غير التشريع والغيبات والعلوم الكونية ، لابد أنه كامن في صميم النسق القرآني)^(١٥). وحسن التخلص جاء لمراعاة هذا النسق.

(١٣) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، (٢ / ٢٩١).

(١٤) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآي والسور، (٣ / ١).

(١٥) سيد قطب، التصوير الفني، ص ١٩.

قال الزركشي - في حديثه عن المناسبات - : "وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء.

وقد قل اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته ، ومن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي ، وقال في تفسيره : أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط ، وقال بعض الأئمة : من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض لئلا يكون منقطعاً.

وهذا النوع يهمله بعض المفسرين أو كثير منهم ، وفوائده غزيرة ، قال القاضي أبو بكر بن العربي في سراج المريدين : ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون الكلمة الواحدة متسقة المعاني ، منتظمة المباني ، علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ، ثم فتح الله عز وجل لنا فيه ، فلما لم نجد له حملةً ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ، ختمنا عليه ، وجعلناه بيننا وبين الله ، ورددناه.

ثم قال تحت عنوان (أنواع ارتباط الآي بعضها ببعض) "...عدنا إلى ذكر ارتباط الآي بعضها ببعض ، فنقول : ذكر الآية بعد الأخرى إما أن يظهر الارتباط بينهما ؛ لتعلق الكلام بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى فواضح ، وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على جهة التأكيد والتفسير ، أو الاعتراض والتشديد ، وهذا القسم لا كلام فيه ...

ثم ذكر تحت هذا حسن التخلص فقال : ".... يظهر لك اشتغال القرآن العظيم على النوع المسمى بالتخلص"^(١٦).

وبذلك يظهر أن حسن التخلص مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمناسبات.

ومثل نزول القرآن منجماً "كمثل بنیان كان قائماً على قواعده ، فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه قدرت أبعاده ورقمت لبناته ثم فرق أنقاضاً ، فلم تلبث كل لبنة منه أن عرفت مكانها المرقوم ، وإذا البنیان قد عاد مرصوصاً يشد بعضه بعضاً كهيئته أول مرة" (١٧).

وهنا مثال على الارتباط بين المناسبة وحسن التخلص ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ أَلَا لِلَّهِ الْإِذْنَ لَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْهُ مِمَّا قَدْ حَلَائِلَ اللَّهُ مِنْهُ لَكُمْ وَالْأَقْدَامُ ۖ ﴾ (يونس : ٥٩).

قال ابن عاشور : (استئناف أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بأن يقوله للمشركين. وافتتاحه بـ {قُلْ} لقصد توجيه الأسماع إليه ، ومناسبة وقوعه عقب ما تقدم أن الكلام المتقدم حكى تكذيبهم بالقرآن وادعاءهم أنه مفترى ، وأنه ليس بحق ، ثم إبطال أن يكون القرآن مفترى على الله ؛ لأنه اشتمل على تفصيل الشريعة ، وتصديق الكتب السالفة ، ولأنه أعجز مكذبيه عن معارضته. فلما استوفى ذلك بأوضح حجة ، وبانت لقاصد الاهتداء المحجة ، لا جرم دالت النوبة إلى إظهار خلل عقولهم واختلال تكذيبهم ، فإنه بعد أن كان تكذيباً بما لم يحيطوا بعلمه ، فقد ارتبكوا في دينهم بما يلزمهم منه مماثلة الحالة التي أنكروها ، فإنهم قد وضعوا ديناً فجعلوا بعض أرزاقهم حلالاً لهم ، وبعضها حراماً عليهم ، فإن كان ذلك حقاً بزعمهم فمن الذي أبلغهم تلك الشرائع عن الله ؟ ولماذا قبلوها عمن شرعها لهم ولم يكذبوه وهم لا يستطيعون أن يلتزموا ذلك ؟ ، وإن كان ذلك من تلقاء أنفسهم فقد افتروا على الله ، فلزمهم ما ألصقوه بالنبي - صلى الله عليه وسلم - فعلق بهم وبرا الله منه رسوله ، فهذا الاستدلال من الطريق المسمى بالقلب في علم الجدل.

ثم إن اختيار الاستدلال عليهم بشيء من تشريعهم في خصوص أرزاقهم يزيد هذا الاستدلال مناسبةً بآخر الكلام الذي قبله ؛ ليظهر ما فيه من حسن التخلّص إليه ، وذلك أن آخر الكلام المتقدم جملة : ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (يونس : ٥٨) ، أي من أموالهم ، وتلك الأموال هي التي رزقهم الله إياها ، فجعلوا منها حلالاً ومنها حراماً ، وكفروا نعمة الله إذ حرموا على أنفسهم من طيبات ما أعطاهم ربهم ، وحسبهم بذلك شناعةً بهم ملصقة ، وأبواباً من الخير في وجوههم مغلقة^(١٨).

المطلب الرابع: أهمية حسن التخلّص، وبيان كونه وجهاً من أوجه الإعجاز البياني

حسن التخلّص في القرآن الكريم من الأدلة الساطعة على علو بلاغته ، ودقة معانيه غير المتناهية في الكمال ، وقد ذهب بعض العلماء إلى أنه وجه من أوجه الإعجاز ، قال الباقلاني : (القرآن على اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة ، والطرق المختلفة ، يجعل المختلف كالمؤتلف ، والمتباين كالمتناسب ، والمتنافر في الأفراد إلى حدّ الأحاد ، وهذا أمر عجيب تتبين فيه الفصاحة ، ويخرج به الكلام عن حدّ العادة ، ويتجاوز العرف)^(١٩) ثم جاء بذكر الأمثلة على ذلك ، حيث قال : (تأمل السورة التي يذكر فيها النمل ، وانظر في كل كلمة كلمة ، وفصل فصل ، بدأ بذكر السورة ، فبين أن القرآن من عنده ، فقال : ﴿وَإِنَّكَ لَلْغَافِرُ الْقَرُوءَاتِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (النمل : ٦) ، ثم وصل بذلك قصة موسى -عليه السلام- وأنه رأى ناراً.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَأْتِيكُمْ بِهِ بِسَبَابٍ فَأَنْتُمْ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (النمل : ٧)..... ثم قال : ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل : ٨) ، فانظر إلى ما أجرى له الكلام من علو أمر هذا النداء ، وعظم

(١٨) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، (١١ / ١١٥).

(١٩) الباقلاني ، إعجاز القرآن ، ص ٣٢.

أمر هذا الثناء، وكيف انتظم مع الكلام الأول، وكيف اتصل بتلك المقدمة، وكيف وصل بها ما بعدها من الإخبار عن الربوبية، وما دل بها عليها، من قلب العصا حيةً، وجعلها دليلاً يدلّه عليه، ومعجزةً تهديه إليه.

وانظر إلى الكلمات المفردة القائمة بأنفسها في الحسن، وفيما تتضمنه من المعاني الشريفة، ثم ما شفع به من هذه الآية، وقرن به هذه الدلالة من اليد البيضاء عن نور البرهان من غير سوء.

ثم انظر في آية آية وكلمة كلمة، هل تجدها كما وصفنا من عجيب النظم وبديع الرصف؟ فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غايةً، وفي الدلالة آيةً، فكيف إذا قارنتها أخواتها، وضامتها ذواتها، تجري في الحسن مجراها، وتأخذ في معناها؟ ثم من قصة إلى قصة، ومن باب إلى باب، من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى الفصل، وحتى يصور لك الفصل وصلاً، ببديع التأليف، وبلغ التنزيل^(٢٠).

والتخلص من معنى إلى آخر بين الآيات المتناسبة، يأتي بنسق عجيب لترابط الآيات بعضها ببعض فتأخذ بحجز بعضها، حتى تكون كالأية الواحدة متسقة المعاني، مرتبطة المباني، وهذا وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم (فكما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته)^(٢١)، وحسن التخلص يجيء لمراعاة النظم لفظاً ومعنى، أما لفظاً: فلأنه لو لم يأت حسن التخلص لاحتجنا إلى كلام كثير لا يتلاءم مع سباق الآية ولحاقها، فضلاً عن سياقها؛ حتى يحصل الترابط بين المعاني وهذا مما يباه النظم، وهذه المهمة الصعبة يقوم بها التخلص بكامل الروعة والحسن، وأما من حيث المعنى: فيأتي لتداخل معنى ما قبله بما بعده،

(٢٠) الباقلائي، إعجاز القرآن، ص ١٢٣-١٢٤ بتصرف.

(٢١) السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، (٥٦/١).

فيأتي رابطاً بين المعنيين ، فلا تظهر فجوة من خلاله عند الانتقال إلى معنى جديد ، فحسن التخلص من بديع النظم القرآني ، و (إذا كان منبع السحر والإعجاز في القرآن الكريم هو في نظمه ، وأن جهات النظم ثلاثة : في الحروف ، والكلمات ، والجمل ، كان لابد لنا من أفراد كل جهة بالكلام ؛ لنبين من خلال تناسب حروفه في كلماته ، وكلماته في جملة ، وجملة في سورة ما يطلعنا على النقص في كلام البلغاء ، وانخطاطه عن مرتبة القرآن ، وظهوره على سائر الكلام" (٢٢).

وبذلك يظهر الإعجاز البياني من خلال حسن التخلص ؛ بالتسلسل المعنوي بين الأغراض في سياق الآيات ، والتناسب في الانتقال من غرض إلى غرض.

ومن أشار إلى جوانب الإعجاز البياني في حسن التخلص من المعاصرين الدكتور محمد عبد الله دراز ؛ حيث رأى في حسن التخلص قوة الربط بين المقاصد القرآنية ، وتأخي اللفظ والمعنى ، إذ يقول : (انظر إلى حسن التخلص في ربطه بين المقصد القديم والمقصد الجديد ، على وجه به يتصلان لفظاً ، وبه انفصالان حكماً ، فهو في جمعها لفظاً كأنه يضع إحدى قدميك عند آخر الماضي ، وثانيتها عند أول المستقبل ، ولكنه في تفريقها حكماً بأداتي النفي والاستدراك كأنما يحول قدميك جميعاً إلى الأمام ﴿لَيْسَ الْإِرَانُ تُوَلُّوْا وُجُوهَكُمْ قِيلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ (سورة البقرة: ١٧٧) ، ولكن يقول : إن مسألة تعيين الأماكن والجهات في مظاهر العبادات تلك.

المسألة التي شغلت بال المخالفين والمؤلفين نقداً ورداً ليست هي كل ما يطلب الاشتغال به من أمر البر ؛ بل هي شعبة واحدة من جملة الشعب التي تشتمل عليها خصلة واحدة من جملة خصاله ، وإنما البر كلمة جامعة لخصال الخير كلها نظريةً وعمليةً في معاملة المخلوق ، وعبادة الخلق ، وتزكية الأخلاق ، فبتلك الخصال جميعها

فليشغل المؤمنون الصادقون، ثم انظر إليه حين أقدم على تفصيل تلك الخصال؛ كيف أنه لم يقبل عليها دفعةً واحدة؛ بل أخذ يتدرج إليها في رفق ولين؛ فتقدم بكلمة فوق الإجمال ودون التفصيل، هي بمثابة فهرس لقواعد الإيمان ولشرائع الإسلام ﴿وَلَكِنَّ الْآلِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ (سورة البقرة: ١٧٧)، وانظر إلى سرد قواعد الإيمان هنا، كيف عدل بها عن ترتيبها المطبوع الذي راعاه في صدر السورة غير مرة، فتراه هنا يجمع بين الطرفين: الإيمان بالله واليوم الآخر، وختم بالواسطة: الإيمان بالملائكة والكتاب والنبیین؛ ذلك لأن من هذه الوسائط تعرف الأحكام الشرعية، وعن يدها تؤخذ، فأخرها لتصل بها تلك الأحكام، حتى لا يحول بين الأصل وفرعه حائل، ولذلك راعى ترتيب أركان هذه الوسطة فيما بينها، فصدر بالملائكة وهم حملة الوحي، وثنى بالكتاب وهو الوحي المحمول، وثالث بالنبیین وهم مهبط الوحي، ومن هناك اتصل ببيان تلك الشرائع التي وصلت إلينا عن طريق النبوة^(٢٣).

قال الدكتور عبد الله دراز - وهو يتحدث عن أوجه إعجاز القرآن - (لعمري إنه في ترتيب آيه على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات)^(٢٤). فإذا كان ترتيب أي القرآن معجز، فإن انتقاله من معنى إلى آخر بخفة، جزء من هذا الإعجاز، وهذا الانتقال المؤنس للسامع معجزة بحد ذاته أيضاً، وهذا هو حسن التخلّص.

(٢٣) دراز، النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، ص ١٩٤ وما بعدها.

(٢٤) المرجع السابق، ص ٢١١.

المطلب الخامس: بيان اهتمام المفسرين بحسن التلخص في القرآن

تنبه المفسرون إلى أهمية حسن التلخص في بيان المعاني القرآنية، وتجلية تناسب المعنوي بين الآيات، إلا أن قسماً منهم لم يعن بهذا الجانب كثيراً، وقسم أولاه بالغ الاهتمام فأكثر من ذكره، وجرى على بيانه في تفسيره، ومنهم الإمام الرازي في مفاتيح الغيب، والإمام البقاعي في تناسق الدرر، والإمام ابن عاشور في التحرير والتنوير.

وفي ما يلي سأذكر بعض النماذج من حسن التلخص عند المفسرين في موضوعات القصص والعقيدة والأحكام.

أولاً: حسن التلخص في القصص القرآني:

ومن ذلك: ما ورد في قصة سيدنا يوسف -عليه السلام- قال الزركشي:

(واعلم أنه حيث قصد التلخص فلا بد من التوطئة له، ومن بديعه: قوله تعالى: ﴿لَنَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ (يوسف: ٣) يشير إلى قصة يوسف -عليه السلام- فوطأ بهذه الجملة إلى ذكر القصة، يشير إليها بهذه النكتة من باب الوحي والرمز وكقوله سبحانه موطئاً للتلخيص إلى ذكر مبتدأ خلق المسيح -عليه السلام- ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٣٣) (٢٥).

- حسن التلخص من القصة إلى الحكم

(٢٥) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، (١/٤٤-٤٥).

ومن الأمثلة على حسن الانتقال من القصة إلى الحكم الشرعي ما جاء في قوله تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل : ٩٠).

إذ لما جاء أن هذا القرآن تبيان لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين حسن التخلّص إلى تبيان أصول الهدى في التشريع للدين الإسلامي العائدة إلى الأمر والنهي ، إذ الشريعة كلها أمر ونهي والتقوى منحصرة في الامتثال والاجتناب. فهذه الآية استئناف لبيان كون الكتاب تبياناً لكل شيء ، فهي جامعة لأصول التشريع. وافتتاح الجملة بحرف التوكيد للاهتمام بشأن ما حوته. وتصديرها باسم الجلالة للتحشيف ، وذكر {يَأْمُرُ} و {يَنْهَى} دون أن يقال : اعدلوا واجتنبوا الفحشاء ، للشويق^(٢٦).

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْغِيبِ وَالطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ (النساء : ٥١). نزلت في كعب بن الأشرف كان قدم إلى مكة وشاهد قتلى بدر وحرص الكفار على الأخذ بثأرهم وغزو النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه : من أهدى سبيلاً؟ المؤمنون أم هم. فقال أنتم قالها كذباً منه وضلالة^(٢٧).

فهذه الآية نزلت في حقه وحق من شاركه في تلك المقالة ، وهم أهل كتاب ومعلوم أنه جاء في كتبهم وصف النبي صلى الله عليه وسلم ونبوته ، ولزوم اتباعه ونصرتة ، لكنهم ماكانوا أمناء فأخفوا وبدلوا وحرفوا ، وهذا مناسب لما بعده قال

(٢٦) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٣ / ٢٠٤).

(٢٧) ينظر أسباب النزول للواحدي، ص ١١٤.

تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء: ٥٨) (وهذه نزلت في شأن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري حاجب الكعبة لما أخذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة ثم رده عليه)^(٢٨).

قال ابن العربي "وجه النظم أنه أخبر عن كتمان أهل الكتاب صفة محمد صلى الله عليه وسلم، وقولهم: إن المشركين أهدى سبيلاً، فكان ذلك خيانة منهم، فأنجز الكلام إلى ذكر جميع الأمانات"^(٢٩).

ووجه التخلّص أنه بعد أن وصف هؤلاء بكتمان الأمانة وذكر قصتهم تخلّص ليبين الأحكام المتعلقة بالأمانة، وهذه العلاقة فيها الانتقال من النموذج إلى أصل المسألة.

ثانياً: حسن التخلّص في الأحكام الشرعية.

ومن هذا قوله تعالى: (وَأَتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ) الآية: (البقرة: ١٩٦)، فوجه اتصال هذه الآيات بما قبلها جلّي، إذ إن آيات القتال السابقة نزلت في بيان أحكام الأشهر الحرم والإحرام والمسجد الحرام، فكان الغرض الأول من السياق بيان أحكام الحج بعد بيان أحكام الصيام، لأن شهوره بعد شهره الذي هو رمضان"^(٣٠).
والعلاقة بين أحكام الصيام والحج هي الترتيب الزمني، فحسن التخلّص من أحكام الصيام إلى أحكام الحج لتتابعهما زمنياً، وهو انتقال بين واضح.

(٢٨) ينظر أسباب النزول للواحي، ص ١١٦.

(٢٩) الزركشي، البرهان، (٢٦/١).

(٣٠) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، (١/ ٢١٧).

ثالثاً: حسن التخلص في الأحكام العقدية.

ومن ذلك قوله تعالى في سورة الصافات: ﴿أَذْلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ (الصافات: ٦٢)، وهذا من بديع التخلص، (فإنه سبحانه خلص من وصف المخلصين وما أعد لهم إلى وصف الظالمين وما أعد لهم)^(٣١).

وهذا التخلص من وصف إلى نقيضه دون أن يشعر القارئ أو المستمع بفجوة أو انقطاع مع إحساسه بالترابط، ، وقد جعل القرآن هذا في إطار مقارنة عقلية بين الوصفين، فبعد أن وصف المتقين وما أعد لهم وارتقت الأحاسيس في عجب ما أعد لهم، واشترأت النفوس شوقاً إلى تلك النزل، جاء باستفهام يستحث تلك النفوس على أن تبادر إلى الإجابة المنطقية الوحيدة بالموازنة العقلية، ثم أشار إلى كل الأوصاف السابقة بقوله (أذلك خير نزلاً)، ليخلص إلى وصف آخر وهو نزل المجرمين.

المبحث الثاني: الدراسة التطبيقية لحسن التخلص في سورة النور

سورة النور مدنية وآياتها أربع وستون آية^(٣٢) ووجه التسمية أن فيها آية ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (النور: ٣٥)^(٣٣).

وشملت من الأغراض كثيراً من أحكام معاشررة الرجال للنساء، ومن آداب الخلطة والزيارة، وأول ما نزلت بسببه قضية التزوج بامرأة اشتهرت بالزنا وصدر ذلك

(٣١) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، (١/٤٤).

(٣٢) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل، (٢/٤٠٧).

(٣٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٨/١١٢).

ببيان حد الزنا، وعقاب الذين يقذفون المحصنات، وحكم اللعان. وأحكام الاستئذان، وصفات المتقين وصفات الكافرين^(٣٤).

المطلب الأول: الانتقال من التأصيل إلى التفصيل

جاءت أول آية في السورة تقرر ما اشتملت عليه من فرائض وأحكام، وختمت الآية بالتعليل المرجو من المخاطبين بمعرفة هذه الأحكام، ثم حُسِّنَ التلخيص إلى حكم مخصوص تنبني عليه الأحكام التالية الواردة في السورة الكريمة.

فقوله ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ قال مجاهد وقتادة: أي بينا الحلال والحرام والأمر والنهي، والحدود. وقال البخاري: ومن قرأ "فَرَضْنَاهَا" يقول: فَرَضْنَا عليكم وعلى من بعدكم^(٣٥).

والعلاقة بين قوله تعالى ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَنْتَهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النور: ١) وقوله بعده ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ (النور: ٣) هو الانتقال من تقرير الفرائض والأحكام إلى البيان التفصيلي لأحكام السورة، "فقوله سورة أنزلناها، أي هذه سورة أنزلناها وفرضناها، يعني: ما فرض في هذه السورة وحد فيها من حدوده، وتقرأ فَرَضْنَاهَا بالثقل، يعني: بينها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون؛ لكي تذكروا"^(٣٦) فهو بعد أن ذكر وجهة السورة ونبه إلى أنها جاءت لتقرير أحكام تتعلق بشؤون الناس، انتقل مباشرة والأذهان منتبهة ومنتظرة ليوصلها إلى حكم مقترف فاحشة الزنا، وهو انتقال من التأصيل إلى التفصيل.

(٣٤) المرجع السابق، (١١٣/١٨).

(٣٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٥/٦).

(٣٦) أبو عبد الله بن أبي زمنين المري، تفسير ابن أبي زمنين، (٤٦١/١).

ونجد في قوله تعالى ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ تشريعاً لعقوبة الزنا.. ثم تخلص من ذكر العقوبة إلى ما هو أخص ليفصل في حكم كل من الزاني والزانية فقال: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ (النور: ٣)، قال ابن عاشور "فإن تشنيع حال البغايا جدير بأن يقدم قوله ما هو أجدر بالتشريع وهو عقوبة فاعل الزنا ؛ ذلك أن مرثد ما بعثه على الرغبة في تزوج عناق إلا ما عرضته عليه من أن يزني معها" (٣٧).

المطلب الثاني: الانتقال من الإجمال إلى التفصيل

فبعد تقرير أن سورة النور سورة أحكام وحدود، نجد أن الآية الأولى وطأت لما بعدها فقوله ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا﴾ يشير إلى الأحكام في السورة فوطأ بهذه الجملة وتخلص بقوله ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النور: ١) إلى ذكر الأحكام التي نزلت في السورة، وجاء هذا التخلص بحرف العطف، وهذا التخلص ربط بين بداية الآيات وما بعدها، فذكر النزول ووطأ لذكر أحكام السورة ثم انتقل لتفصيل هذه الأحكام، فجاء بحد الزنا قال عز من قائل: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور: ٢) ثم تخلص من حد الزنا لينتقل إلى أحوال الزناة ذكوراً وإناثاً، فقال: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور: ٣) وهذا انتقال من حكم إلى حكم آخر، فالأول تضمن العقوبة الآتية، والثاني تضمن أحوال الزناة ووضعهم في المجتمع بعد اقتراف هذه الفاحشة.

المطلب الثالث: الانتقال من حكم إلى حكم آخر

(حسن التخلص من حد الزنا إلى حد القذف)

ثم انتقل القرآن من ذكر الزناة وأحكامهم، إلى متعلق من متعلقاته وهو التهمة بالزنا فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور: ٤).

فبعد أن بين ما يتعلق بحكم الزنا، تخلص إلى حكم آخر وهو التهمة بالزنا، وجاء التخلص بحرف العطف، ووجه الصلة بين الحكمين ارتباطهما بفاحشة الزنا ونوع العقوبة، وهو انتقال من حكم إلى حكم آخر فالحكم الأول متعلق بفعل الفاحشة وفاعلها، والثاني متعلق بشهادة الشاهد على الفاعل والواقعة.

وهنا بديع التخلص من ذكر من ثبتت عليه الفاحشة إلى وسيلة إثباتها، والرباط معنوي؛ فكما غلظ في عقوبة الزناة غلظ في عقوبة من يرمي نساء المؤمنين بالزنا، صيانةً للأعراض، وحيث إن العقوبة فيها ردع للفاعل ولغيره، فإن اتهام المؤمنات بلا بينة يستوجب عقوبة رادعة لمن أطلق لسانه في أعراض الناس ولغيره.

ثم تخلص من حد القذف إلى اللعان وهذا انتقال من حكم عام إلى حكم أخص، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَذَّابِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَذَّابِينَ (٨) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ (النور: ٤ - ١٠).

فبعد أن فصل حكم واقعة الزنا مبيناً حد الفاعل والشاهد، وحد اللعان، تخلص إلى ذكر حادثة الإفك، وهو انتقال من الحكم إلى النموذج، وهو نموذج على القذف بالباطل.

المطلب الرابع: الانتقال من الحكم إلى النموذج

(حسن التخلص من حد القذف واللعان إلى حادثة الإفك)

بعد أن قرر حكم الزنا والقذف به، انتقل من الحكم إلى الواقعة، فتخلص من الحكم بقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ (النور: ١٠) إلى النموذج "صار ذلك كأنه مقدمة لهذه القصة، التي وقعت على أشرف النساء أم المؤمنين رضي الله عنها" (٣٨)، وهذا النموذج هو حادثة الإفك "وكل الآيات التي سبقتها إنما كانت مقدمة لتبرئتها" (٣٩). فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١١) ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (١٢) ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَذُوقُوا عَذَابَ اللَّهِ هُمْ الْكَذِبُونَ﴾ (١٣) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٤) ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ يَا أَوَّاهُكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (١٥) ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا مَبْهُتُنَّ عَظِيمٌ﴾ (١٦) ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٧) ﴿وَيَسِّرُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النور: ١١ - ١٨).

فبعد بيان الحكم جاء بالنموذج ليكون أدعى في الزجر والتقريع، فهو سبحانه أعلمهم بالحكم، ثم ذكر لهم ما فعلوه ليكونوا شهداء على أنفسهم، وليعلموا عظم ما وقعوا فيه فقد "أنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه" (٤٠). وفي هذا النموذج توطئة لحكم آتٍ يتعلق بالنظر والخلوة.

(٣٨) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، (١/ ٥٦٢).

(٣٩) فاضل السامرائي، لمسات بيانية، (٣/١).

(٤٠) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٤/ ٣٢٦).

المطلب الخامس: الانتقال من الحكم إلى الوصف

(التخلص من حادثة الإفك إلى بيان صفة المنافقين)

انتقل القرآن إلى متعلق نفسي مشيراً إلى مرض قلبي تلبس بالمنافقين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النور: ١٩) فبين حكم هؤلاء، ووجه الصلة بين حادثة الإفك وهذه الآية أنها بينت صفة قلبية يتصف بها المنافقون الذين تكلموا في السيدة عائشة - رضي الله عنها - فهم يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا.

المطلب السادس: الانتقال من الحكم إلى السبب

نبه القرآن إلى عدم الاقتراب من الزنا، لأن الله - عز وجل - أعلم بما يصلح الإنسان وما يفسده، فالوقوع في فاحشة الزنا لا يأتي فجأة، بل له مقدمات ومداخل وأسباب، والشارع الحكيم عالج هذه الأمور كلها، فالنظر هو المدخل الأعظم للزنا: (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) وهنا قرن الله - عز وجل - بين النظر وحفظ الفرج، والعلاقة واضحة، وحتى ينضبط هذا الأمر جعل الشارع كل التحصينات اللازمة لتحقيق ذلك، ومن ذلك تبين العلاقة بين الانتقال من حكم الزنا إلى حكم الاستئذان؛ إذ للبيوت حرمت، والداخل دون استئذان ربما رأى من أهل البيت الذي يطرقه مالا يحل له، فيكون ذلك مدخلاً للزنا، وهذا تخلص من الحكم إلى بيان السبب، فيقدم بعد الحكم الأسباب الوقائية والمحصنات اللازمة لتجنب الوقوع في فاحشة الزنا.

قال الرازي: (اعلم أنه تعالى عدل عما يتصل بالرمي والقذف وما يتعلق بهما من الحكم إلى ما يليق به؛ لأن أهل الإفك إنما وجدوا السبيل إلى بهتانهم من حيث اتفقت الخلوة، فصارت كأنها طريق التهمة فأوجب الله تعالى أن لا يدخل المرء بيت

غيره إلا بعد الاستئذان والسلام ؛ لأن في الدخول لا على هذا الوجه وقوع التهمة ، وفي ذلك من المضرة ما لا خفاء به فقال : (يا أيها الذين ءامنوا) الآية^(٤١).

ثم انتقل إلى متعلق قلبي وهو سبب آخر من أسباب الزنا فطلب من المؤمنين غض أبصارهم ، فقد لا يتمكن المرء من التحرز عن الاختلاط ورؤية ما يعجبه ، فأمر بغض البصر ؛ لأن الله - عز وجل - بصير بقلوب عباده .
والعلاقة بين أحكام الاستئذان والأمر بغض البصر أن كلا منهما من الأحكام الوقائية التي تحمي المسلم من فاحشة الزنا .

" وكلها أسباب وقائية لضمانة الطهر والتعفف في عالم الضمير والشعور "^(٤٢).

ثم تخلص إلى حكم آخر وهو النكاح فقال : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَسِيعُ عَلِيمٌ ﴾ (النور : ٣٢)
ثم تخلص إلى حكم أخلاقي متعلق بالنكاح وهو أحد موانع الوقوع في فاحشة الزنا ألا وهو العفة فقال : ﴿ وَلَيْسَتَعَفِيفٌ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ ﴾ (النور : ٣٣) وهنا تخلص من حكم الى حكم آخر ، والرباط أنه ختم الآية الأولى بذكر أن النكاح من أسباب الغنى والمخرج من الفقر ، فناسب أن يذكر بعده حكماً متعلقاً بطالب النكاح الذي يمنعه الفقر .

المطلب السابع: الانتقال من الأحكام إلى وصفه لذاته سبحانه وضرب المثل

ثم تخلص من ذكر الأحكام المتعلقة بالزنا والنكاح ، إلى ذكر الله عز وجل ، وهذا من أعجب تخلصات القرآن الكريم ، فقد يظن أن لا علاقة بين هذه الأحكام والانتقال مباشرة إلى آية النور ، مع أن النفس لا تشعر بفجوة أو انقطاع من هذا الانتقال .

(٤١) الرازي، مفاتيح الغيب، (٢٣/٣٥٦).

(٤٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، (٤/٢٤٨٤).

ووطأ إلى هذا التخلّص بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (النور: ٣٤) "ولما فصل تعالى هذه الأحكام وبيّنها قال: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ يعني: القرآن فيه آيات واضحة مفسرات، ﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (النور: ٣٤) أي: خبراً عن الأمم الماضية"^(٤٣).

ولما كانت دواعي الزنا وأسبابه لا يتحرز عنها إلا بطهارة القلب ولزوم تقوى الله ومراقبته، ولما ورد في الآيات أن النكاح سبب في الغنى مع أنه مظنة زائدة في الفقر، كان هذا محتاجاً إلى يقين زائد واعتماد صادق على مسبب الأسباب هذا الاعتماد القلبي يحتاج إلى إيمان عميق، وهذا الإيمان يتطلب معرفة المزيد عن ذات الله عز وجل وصفاته، فيعظمه قلب المؤمن ويوقن أن قوله الحق فيندفع من قلبه شعور يحرك أركانه إلى فعل المأمور وترك المزجور، بذلك يتبين حسن التخلّص من ذكر الأحكام إلى وصف الله عز وجل لذاته سبحانه. والرابط بينهما قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (النور: ٣٤)، فهذه الآية ربطت بين الحكم الذي هو بمثابة السبب والشارع الذي هو المسبب، فناسب بعدها الانتقال إلى وصف الله عز وجل لذاته.

قال أبو السعود في هذه الآية: "كلامٌ مستأنف جيء به في تضاعيف ما ورد من الآيات السابقة والأحقّة لبيان جلاله شؤونها المستوجبة للإقبال الكلي العمليّ بمضمونها، وصدّر بالقسم الذي تُعرب عنه اللام لإبراز كمال العناية بشأنه؛ أي وبالله

(٤٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٦/ ٥٧).

لقد أنزلنا إليكم في هذه السورة الكريمة آياتٍ مبيّنةٍ لكلِّ ما بكم حاجةٌ إلى بيانه من الحدود وسائر الأحكام والآداب^(٤٤).

ولعل من لطيف التناسب الذي ظهر بحسن التخلص بين آية النور و آيات النظر وغض البصر أن غض البصر يكسب القلب نورا، لذا جاءت آية النور بعد ذلك، كما أن إطلاق البصر دون ضوابط يكسب القلب ظلمة.

فقال عز وجل: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كِشْفَوْهَا مِنْهَا مِصْبَاحٌ مِصْبَاحٌ فِيهِ زَيْتُ الْجَاذِبَةِ كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٣٥).

"قال مجاهد وابن عباس في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يدبر الأمر فيهما"^(٤٥) و"عن أبي بن كعب في قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: هو المؤمن الذي جعل الله الإيمان والقرآن في صدره، فضرب الله مثله فقال:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فبدأ بنور نفسه، ثم ذكر نور المؤمن فقال: مثل نور من آمن به"^(٤٦). وهذه الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها، والاسم الشريف مبتدأ، و ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خبره، إما على حذف مضاف، أي: ذو نور السموات، والأرض، أو لكون المراد المبالغة في وصفه سبحانه بأنه نور لكمال جلاله، وظهور عدله، وبسطه أحكامه"^(٤٧).

(٤٤) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، (١٠٢/٥).

(٤٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٥٧/٦).

(٤٦) المصدر السابق، (٥٧/٦).

(٤٧) الشوكاني، فتح القدير، (٢٢١/٥).

وفي هذه الآية يقول الزركشي في البرهان: " فيها خمس تخلصات ؛ وذلك أنه جاء بصفة النور، وتمثيله ثم تخلص منه إلى ذكر الزجاجة وصفاتها، ثم رجع إلى ذكر النور والزيت يستمد منه، ثم التخلص منه إلى ذكر الشجرة، ثم تخلص من ذكرها إلى صفة الزيت، ثم تخلص من صفة الزيت إلى صفة النور وتضاعفه، ثم تخلص منه إلى نعم الله بالهدى على من يشاء" (٤٨).

المطلب الثامن: الانتقال من الحكم العقدي إلى الأثر العملي المترتب عليه

تخلص من آية النور التي بها تنزيهه وبيان قدرته وإحاطته إلى لازمه المطلوب من العبد وهو ذكره وتسبيحه فقال: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ (النور: ٣٦) "وبيوت الله هي الأماكن التي تنزل فيها الرحمات من الحق سبحانه وتعالى.....، أي أن الذين يرون هذا النور ويتنزل عليهم هم عمار المساجد" (٤٩) فهذه العلاقة المعنوية تمثل الرابط بين الآيتين.

و(قد ذكر أزمئة أول النهار وأزمئة أول الليل ؛ لأن هذه الأزمئة هي التي يطلب فيها الذكر. فقبل أن تخرج للعمل في أول النهار أنت تحتاج لشحنة من العزيمة تقابل بها العمل من أجل مطالب الحياة، وفي نهاية النهار أنت تحتاج أن تركز إلى ربك ليزيح عنك متاعب هذا اليوم" (٥٠).

فذكر أن له أماكن مخصصة لذلك، وأصحابها رجال عباد مخلصون ﴿ رِجَالٌ لَا لُئْلِيهِمْ هَيْجَرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ (النور: ٣٧). وهذا تخلص من الحكم العقدي إلى الأثر العملي المترتب عليه.

(٤٨) الزركشي، البرهان، (٤٣/١).

(٤٩) الشعراوي، تفسير الشعراوي، (٣٤٠٦/١).

(٥٠) المرجع السابق، (٣١٨٤/١).

المطلب التاسع: الانتقال من وصف المتقين إلى جزائهم

ثم تخلص لذكر جزاء هؤلاء المؤمنين المتقين ﴿لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (النور: ٣٨).

المطلب العاشر: الانتقال من ذكر المتقين إلى ذكر الكافرين

ولما ذكر المتقين وجزاءهم ناسب الكلام على ضدهم وهم الذين كفروا، فعندما يذكر الحسن يخطر في النفس نقيضه فجاءت المقابلة وهي من تخلصات القرآن الكريم في الموازنة بين المتقين والكافرين ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهمُ كَسَرِ بَقِيعَةٍ يَّحْسَبُهَا الظَّالِمُ أَن مَّاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ سَيْئًا وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّيَهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (النور: ٣٩)

وكلامه عن أعمال الكافرين جاء في تشبيهه معقول بمحسوس وهو السراب، ثم تخلص إلى تشبيه آخر فقال: ﴿أَوْ كَظُلُمَنتِ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ طُلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ لَمْ يَكْدِرْ بَهَا ۗ وَمَن لَّا يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ (النور: ٤٠) ثم تخلص من التشبيه إلى بيان دلائل القدرة الإلهية فقال: ﴿الَّذِي أَنزَلَ اللَّهُ سَيْحًا لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَفَقَتْ كُلُّ قَدَمٍ مَّاءً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِّمَا يَفْعَلُونَ﴾ (النور: ٤١) وبعد أن ختم الآية بذكر صفة العلم حيث إنه سبحانه يعلم تسبيح من في السموات والأرض، ناسب أن يذكر بعدها صفة أخرى له سبحانه وهي الملك فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (النور: ٤٢)، قال أبو حيان: (ثم تخلص من تقرير حكم عقدي وهو ملكه لكل شيء إلى الكلام عن أحد أفراد ملكه الذين ذكرهم في الآية، وهو ملكه للأرض، فذكر آية دالة على ملكه لها فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِطُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَرٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَاقِبُهُ

يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿ (النور: ٤٣) وهذه آية حسية يشاهدها الإنسان، ثم ذكر آيتين كونيتين تدلان على ملكه وقدرته.

قال الرازي: ((وإلى الله المصير) عبارة تامة في معرفة المعاد، وهو أنه لا بد من مصير الكل إليه سبحانه، وله وجه آخر وهو أن الوجود يبدأ من الأشرف فالأشرف نازلا من الأخس فالأخس، مترقيا إلى الأشرف فالأشرف؛ فإنه يكون جسما ثم يصيره موصوفا بالنباتية ثم الحيوانية ثم الإنسانية ثم الملكية، ثم ينتهي إلى واجب الوجود لذاته فالاعتبار الأول هو قوله ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والثاني هو قوله ﴿وَالِىَ اللَّهُ الْمَصِيرُ﴾ (٥١).

وقال ابن عاشور: (أعقب الدلالة على إعطاء الهوى في قوانين الإلهام في العجاومات بالدلالة على خلق الخصائص في الجماد، بحيث الذي قدره الله لها سيرا لا يتغير فهي بذلك أهدي من فريق الكافرين الذين لهم عقول وحواس لا يهتدون بها إلى معرفه الله تعالى والنظر في أدلتها. وفي ذلك دلالة على عظمة القدرة وسعة العلم ووحدانية التصرف، وهذا استدلال بنظام بعض حوادث الجو حتى آل إلى قوله (فيصيب به من ما يشاء ويصرفه عمن يشاء) وقد حصل من هذا حسن تخلص للانتقال إلى الاستدلال على عظم القدرة وسمو الحكمة وسعة العلم الإلهي) (٥٢). وبعد أن بين قدرته وذكر شواهد يراها كل أحد فلا يظن أن ينكر عاقل هذه القدرة، حسن أن يتخلص ليصف حال المنافقين قال الرازي: (اعلم أنه لما ذكر دلائل التوحيد أتبعه بذكر قوم اعترفوا بالدين بألستهم ولكنهم لم يقبلوه بقلوبهم) (٥٣).

(٥١) الرازي، مفاتيح الغيب، (٤٠٩/٢٤).

(٥٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٠٨/١٨).

(٥٣) الرازي، مفاتيح الغيب، (٤٠٩/٢٤).

قال سبحانه: ﴿ وَيَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَا رَسُولَ اطعنا ثم يتولَّى فريقٌ منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ﴾ (٤٧) وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريقٌ منهم معرضون ﴿٤٨﴾ وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ﴿٤٩﴾ في قلوبهم مرض أو رتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون ﴿ (النور: ٤٧ - ٥٠) .

ثم تخلص لوصف المؤمنين على أسلوب المقابلة فقال: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٥١) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿ (النور: ٥١ - ٥٢) .

وتمضي الآيات في وصف الفريقين وجزاء كل فريق في الدنيا والآخرة.

ثم نرى الآيات ترجع إلى حكم سبق الكلام عنه وهو الاستئذان ؛ ليشير بذلك إلى أن الزنا أصل كل رذيلة وفجور وترك للطاعة، و ليشير إلى ضرورة الالتزام بالأحكام والشرائع وأنها دليل الإيمان وعلامته وهي الموجبة له والباعثة عليه، والمناسبة في ذكر الاستئذان أنه ارتبط بالصلوات الخمس، فتخلص من الأمر بإقامة الصلاة في قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (النور: ٥٦) إلى متابعة أحكام الاستئذان المرتبطة بمواقيت الصلوات

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكَ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثُ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَصْعُونَ فِي آبَائِكُمْ مِنْ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَفَاتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النور: ٥٨) قال ابن عاشور: (استئناف انتقالي إلى غرض من أحكام المخالطة والمعاشرة، وهو عود إلى الغرض الذي ابتدئت به السورة وقطع عن قوله

(وموعظة للمتقين) وقد ذكر قبل هذه الآية شروع الاستئذان لأتباع العائلة ومن هو شديد الاختلاط إذا أراد دخول بيت فهو من متممات ما ذكر في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النور: ٢٧) (٥٤).

وبعد أن فصل في أحكام الاستئذان الخاصة في دخول الناس عموماً على بعضهم صغاراً وكباراً وما يتعلق بها، تخلص إلى حكم خاص وهو أدب التعامل مع النبي صلى الله عليه وسلم، والاستئذان منه، وهذا تخلص من حكم عام إلى حكم خاص فالاستئذان من النبي - صلى الله عليه وسلم - فيه خصوصية زائدة لا تكون بين الناس بعضهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرُ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٦٢ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْلُونَ مِنْكُمْ لَوْ آذَىٰ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾ ثم اختتمت السورة بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ غَيْرِهِمْ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٤﴾ (النور: ٦٢ - ٦٤) (٥٥).

(٥٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٨ / ٢٣٣).

(٥٥) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٨ / ٢٣٣).

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فبعد هذا الجهد في هذا الموضوع آن لي أن أسجل خلاصة البحث وخاتمته ، وهذه أبرزها :

١ - حسن التخلص من فنون البلاغة العربية ، وهو : الانتقال بخفة من فن الى آخر من فنون الكلام ، بحيث لا يشعر السامع بفجوة خلال هذا الانتقال مع وجود الانسجام بين تلك المعاني.

٢ - ورد استعمال هذا المصطلح البلاغي عند علماء علوم القرآن والمفسرين ولا تكاد تجد فرقاً بين ما عند هؤلاء وما عند علماء البلاغة في مفهومه.

٣ - لحسن التخلص في القرآن فوائد غزيرة حيث إن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط كما قال الرازي في تفسيره.

٤ - علاقة حسن التخلص بعلم المناسبات علاقة الفرع بالأصل ؛ فحسن التخلص جزء من علم المناسبات ، وهو الرابط الذي جاء لمراعاة النسق القرآني.

٥ - قلت عناية بعض المفسرين بهذا النوع من الفن البلاغي وأكثر بعضهم منه ، وعني به عناية بالغة ومن هؤلاء الرازي في تفسيره وأبو حيان في تفسيره ، ومن المعاصرين ابن عاشور في تفسيره.

٦ - حسن التخلص في القرآن من الأدلة الساطعة على علو بلاغته ودقة معانيه المتناهية في الكمال ، وهو وجه معتبر من أوجه الإعجاز البياني ، به تظهر قوة الربط بين المقاصد القرآنية وتأخي اللفظ والمعنى.

٧ - حفلت سورة النور بموضوعات متنوعة في العقيدة والأحكام الشرعية والجوانب الخلقية والاجتماعية، فهي متعددة المقاصد والأغراض، وقد بدا حسن التخلّص فيها جلياً يؤكد إعجاز القرآن ودقة نظمته، وقد أظهر حسن التخلّص والانتقال بين آيات السورة وموضوعاتها علاقات ووشائج يمكن إجمالها فيما يلي:

- أ (الانتقال من التّأصيل إلى التفصيل.
- ب (الانتقال من الإجمال إلى التفصيل.
- ج (الانتقال من حكم إلى آخر له تعلق به.
- د (الانتقال من الحكم إلى النموذج، ومثاله حسن التخلّص من حد القذف واللعان إلى حادثة الإفك.
- هـ (الانتقال من الحكم إلى الوصف ومثاله التخلّص من حادثة الإفك إلى بيان صفة المنافقين.
- و (الانتقال من الحكم إلى السبب ومثاله حسن التخلّص من آيات الاستئذان إلى آيات النظر وغض البصر.
- ز (الانتقال من الأحكام الشرعية إلى آيات الصفات.
- ح (الانتقال من الأحكام العقديّة إلى الأثر العملي المترتب عليها؛ حيث تخلّصت آية النور إلى ذكره وتسيّحه في بيوت أذن الله أن ترفع.
- ط (الانتقال من ذكر المتقين إلى جزائهم.
- ي (الانتقال من ذكر المتقين إلى ذكر الكافرين.
- ك (الانتقال من ذكر الكافرين إلى ذكر دلائل القدرة في الموجودات وأنه وحده سبحانه المستحق للعبادة.
- ل (الانتقال من ذكر دلائل القدرة لوصف أحوال المنافقين.

م (الانتقال لوصف المؤمنين على أسلوب المقابلة.

ن (الانتقال للحديث عن الاستئذان ليشير إلى ضرورة الالتزام بالأحكام الشرعية.

س (الانتقال إلى حكم خاص وهو أدب التعامل مع النبي صلى الله عليه وسلم والاستئذان منه ، وهذا انتقال من حكم عام إلى حكم خاص.

وفي حسن الانتقال في هذه السورة ترى العلاقة التذييلية ؛ كأن تكون الآية المنتقل إليها متعلقة بالآية المنتقل عنها تعلقاً فيه تعليل أو استنتاج أو خلاصة لما سبق.

وتلاحظ كذلك علاقة الخاص بالعام وعلاقة النموذج والمثال بالأصل المتفرع عنه ، وبيان السبب عقب الحادثة وتجد العلاقة الاستدلالية ، والانتقال في الاستدلال حيث ذكر دلالة القدرة في إنزال المطر ثم بعد ذلك دلالة القدرة في الخلق الإنساني والحيواني.

ويبرز لدى القارئ في حسن التلخيص في هذه السورة بيان التقسيم والتنويع والتصنيف للأشياء والفئات الإنسانية إزاء القضايا الكونية والشرعية.

وبعد ، فهذا الجهد وعلى الله التكلان ، والله الموفق للصواب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرست المصادر والمراجع

- [١] ابن رشيقي : أبو الحسن علي بن أبي الرجال القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط ٤ ، بيروت ، دار الجيل ، ١٩٧٢ م.

- [٢] ابن عاشور: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، **التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور**، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- [٣] ابن المعتز: عبد الله بن محمد بن المتوكل، **البدیع**، تحقيق: أغناطيوس كراتشوفسكي، ط ١، دمشق، دار الحكمة.
- [٤] إبراهيم الإياري، **الموسوعة القرآنية**، مؤسسة سجل العرب، سنة الطبع: ١٤٠٥هـ.
- [٥] أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي، **تفسير مقاتل بن سليمان**، تحقيق: أحمد فريد، دار النشر: دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت - ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ط ١.
- [٦] أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، دار إحياء التراث العربي، ١٩٧٠، بيروت.
- [٧] أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- [٨] أبو عبد الله بن أبي زمنين المري، **تفسير ابن أبي زمنين** [وهو مختصر تفسير يحيى بن سلام]. تحقيق: أحمد فريد ومحمد حسن محمد حسن، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣، بيروت.
- [٩] الباقلائي، محمد بن الطيب، **إعجاز القرآن الكريم**، تحقيق: صلاح بن محمد بن عويضة، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٦م.

- [١٠] البغدادي، عبد القادر بن عمر، **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، تحقيق: محمد نبيل طريفي و إميل بديع يعقوب. دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٩٨م، ط ١.
- [١١] برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- [١٢] الخطيب القزويني، أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن، **الإيضاح في علوم البلاغة**، تعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، ط ٥، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٤٠٣هـ ودار إحياء العلوم - بيروت - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، الطبعة: الرابعة، تحقيق: الشيخ بهيج غزاوي.
- [١٣] الداودي، أحمد بن محمد، **طبقات المفسرين**، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي دراز، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م
- [١٤] محمد عبد الله، **النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن**، دار الثقافة، الدوحة، ط ١، ١٩٨٥م.
- [١٥] الرازي، محمد بن عمر المعروف بفخر الدين، **مفاتيح الغيب**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- [١٦] الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه.
- [١٧] السامرائي، فاضل صالح، **لمسات بيانية في نصوص من التنزيل**، دار عمار، ١٩٩٨، عمان.

[١٨] السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢ هـ - ٢٠٠٠ م.

[١٩] سيد قطب إبراهيم، التصوير الفني في القرآن.

[٢٠] السيوطي عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة المصرية، بيروت، ١٩٨٨ م.

[٢١] معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد علي البجاوي، دار الفكر العربي.

[٢٢] الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي مطابع دار أخبار اليوم، قطاع الثقافة والكتب والمكتبات، راجعه: أ.د أحمد عمر هاشم، ١٩٩١، ٦ أكتوبر، مصر.

[٢٣] الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، فتح القدير الجامع بين فني الرواية و الدراية من علم التفسير، الناشر: محفوظ العلي، ١٩٨٠، بيروت.

[٢٤] العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، تحقيق: علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، بيروت، المكتبة المصرية.

[٢٥] محمد الجرجاني، محمد بن علي بن محمد الأسد آباذي، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، تحقيق: عبد القادر حسين، ط ١، القاهرة، دار نهضة مصر، ١٩٨١ م.

[٢٦] محمد رشيد بن علي رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة النشر: ١٩٩٠ م.

- [٢٧] محمود بن عبد الرحيم صافي، **الجدول في إعراب القرآن**، الناشر: دار الرشيد
مؤسسة الإيمان - دمشق، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ.
- [٢٨] الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، **أسباب النزول**،
توزيع دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الناشر: مؤسسة الحلبي وشركائه
للنشر والتوزيع - القاهرة.

Smoothing of transition in Al- Noor Surah

Zakarea Alkhader

Assistant Professor At Department of Usul AlFigh, Faculty of Sharia and Islamic Studies,
Yarmuk University

(Received 26/2/1433H; accepted for publication 5/7/1434H)

Abstract. Smoothing of transition is regarded as one of the art of rhetoric in the composition of the Quran, in this field the researcher explained the relationship between the smoothing of transition and science of coordination, and he explored that this Kind of rhetoric is one of the features of Quran minitability.

In this research it will be noted the care of Quran interpreters in the smoothing of transition in their commentaries, and the importance of this subject will be appeared by connectiong among the theims of the Quran and each verse and another.

also the researcher exposed to apractical study for Al Noor Surah as due to it's several subjects, so the researcher mentioned the kinds of relations in smoothing of transition and it's impact on the features of rhetoric and minitability in this Glorious Surah.

دور الخلاف في تيسير الفتوى

د. علي بن أحمد بن أحمد الحذيفي

أستاذ مساعد بقسم الدراسات القضائية بجامعة أم القرى

قدم للنشر في ١٤٣٣/٦/٧هـ وقبل للنشر في ١٤٣٣/١١/٢٨هـ

ملخص البحث. الحمد لله والصلاة والسلام على من لا نبي بعده... وبعد:

اشتمل هذا البحث على دراسة حول مسألة الاحتجاج بمسائل الخلاف ودوره في تيسير الفتوى والتوسعة فيها، وقد تضمنت مقدمة اشتملت على أسباب اختيار الموضوع، وأهميته، والدراسات السابقة، ومنهجي في البحث، وخطته.

وضمنته تمهيداً وثمانية مباحث:

المبحث الأول: التيسير في الشريعة الإسلامية.

المبحث الثاني: مجال التيسير في الشريعة الإسلامية.

المبحث الثالث: ضوابط تيسير الفتوى.

المبحث الرابع: حقيقة الاحتجاج بمسائل الخلاف وآراء العلماء، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: حقيقة الاحتجاج بمسائل الخلاف.

المطلب الثاني: آراء علماء الأصول في الاحتجاج بمسائل الخلاف.

المبحث الخامس: من اتخذ الخلاف دليلاً على التيسير والتوسعة.

المبحث السادس: متى يحتج بمسائل الخلاف.

المبحث السابع: ضوابط الاحتجاج بمسائل الخلاف.

المبحث الثامن: الآثار المترتبة على القول بالاحتجاج بمسائل الخلاف مطلقاً.

وخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج والتوصيات، من أهمها:

أن التيسير مقصد من مقاصد الشريعة، ويكون بضوابطه.